لقاء عابر

استقام العمل فى قناة السويس كمجرى ملاحى عالمى يصل الشرق بالغرب . . وأثبت المرشدون المصريون دقة وكفاءة فى عملـهم وبسرعة فائقة استوعبوا ما تلقوه من معارف، وقادوا القوافل البحرية خير قيادة . . وكتبوا لأنفسهم شهادة النجاح ليتوجوا به النصر العظيم فى بورسعيد الباسلة .

ولم تعد مصر فى حاجة لأن تستجدى الدول الأجنبية حتى يرسلوا لـها المرشدين . . بل شهد لـهم الجميع بحسن الإدارة وجمال التنظيم .

واستقر جابر فى الإسماعيلية كمرشد مساعد يؤدى عملـه على خير وجه . . ورشحته الـهيئة مرشداً وهو ينتظر الترقية الجديدة يومًا بعد يوم . . ولم يقصر فى زيارة والدته وشقيقته بالسويس كلما مر عليها، وأحيانًا تزوره فى مقر عملـه لتقضى معه أيامـًا وكذلك شقيقته . . وداوت الأيام جراح الأسرة فتطلعت إلى المستقبل تحاول أن تبنى ما هدمه الأمس وهده الحزن، وأشرقت بسمة خفيفه فى سماء الأسرة تمسح دموع الماضى وتداوى الآلام .

لم يفكر أحمد فى الزواج وكذلك جابر . . وامتص العمل المتواصل جهدهما واستنفد وقتهما وملك عليهما حياتهما .

وبرمت الأم من كثرة الحاحها عليها فى هذا الأمر . . فليس أسعد للأم من أن ترى أبناءها يكونون أُسراً سعيدة، ويضيفون إلى عمرها عمراً جديداً بالأبناء والأحفاد . . وصمتت حين لم تر منهما استجابة مؤمنة بأنهما سيحققان ذلك فى الزمن القريب .

وأغلق أحمد قلبه عن كل شيء إلا عن عملـه الذى أحبه كل الحب ووهب لـه

عمره وكأنه يثأر بهذا العمل المتواصل لوالده الشهيد وأخيه البطل . . ولا يود أن يترك ولو ثغرة ضئيلة يتسلل منها العدو مرة أخرى . . ليزرع الأسى وينشر الحزن ويسيل الدموع .

وجنت مصر من قناة السويس ثماراً طيبة بسواعد أبنائها الأبطال لتتمكن بهذا العائد من بناء السد العالى الذى رفض البنك الدولى بإيعاز من الدول الاستعمارية تمويلـه بعد موافقته عليه من قبل لتهديد مصر والضغط عليها . . ولم تعد الحرب فى ميدان واحد بل تجاوزته إلى عدة ميادين . . سياسية واقتصادية وغيرها . . مما دفع الأيدى أن تتشابك والقلوب أن تتعاون للخروج من هذا الحصار الذى أخذ يضيق الخناق على شعب آمن يريد أن ينعم بحريته ويسترد حقه المسلوب . . وأحس أحمد كما أحس جابر أن عين الاستعمار لم تغفل ولم تنم، وأنها تتحين الفرص لمعاودة الانقضاض مرة أخرى ولو بشكل غير مباشر عن طريق إسرائيل . . فأمدتها بالأسلحة المدمرة وبأحدث معدات الحرب الحديثة لتكون يدها التى تبطش بمصر والعرب .

ولم تبخل الدولة على الجيش بما تستطيعه، فأمدته بما يعينه على الصمود والتحدى أن لم يكن الانتصار والفوز، وصار لـها جيش ذو عدد وعدة من حقها أن تعتز به ويكون سنداً لـها فى المحن .

ولم يعش جابر حياة سهلة فى عملـه الجديد . . فهو ينتقل من سفينة إلى سفينة من الشمال إلى الجنوب والعكس . . ومن باخرة مدنية إلى حاوية تجارية أو عسكرية . . وفى عملـه داخل السفن يسمع الـهمس يدور عن أزمة عسكرية ستنشب قريباً بين مصر وإسرائيل . . واستطاع أن يلتقط بعض الأخبار من هنا أو هناك لينسج من خيوطها واقعاً يؤكد أن صراعا بدرجة ما لابد أن يقع بين

الدولتين، وأن إسرائيل أعدت العدة لما تريد.

ولم يبخل جابر عن مرؤسيه بما يسمعه من أخبار حتى يكونوا على بينة ويوصلوا هذه الأخبار إلى من بيدهم الأمر . . وكثيراً ما التقى بأخيه أحمد على مائدة أمه أو شقيقته أو فى زيارات عابرات . . فيتجاذبان أطراف الحديث فى موضوعات شتى من هنا أو هناك إلا أنهما يلتقيان فى نقطة واحدة هى الخطر الإسرائيلى المرتقب الذى يحتم أن نتأهب لـه ونستعد لوقوعه استعداداً كاملاً.

وحققت الأيام لجابر الأمل الذى يتمناه؛ فرقى من درجة مساعد مرشد إلى درجة مرشد نتيجة لكفاءته ونشاطه وإخلاصه فى عملـه.

واستدعى إلى إدارة هيئة القناة لبعض المهام التى تتعلق بوظيفة الجديدة. . وفى خارج الـهيئة بالقرب من أحد مبانى التوجيه للسفن . . التقى بفتاة تقف على سلم مرتفع واقترب منها يسألـها عن بعض ما يجهلـه كواحدة من العاملات فى الـهيئة. . وفى بسمه وديعة أجابته الفتاة عما يريد. . وقادته إلى المكان الذى يقصد الذهاب إليه. . وفى الطريق عرفته بنفسها. . فهى تعمل فى إدارة توجيه السفن منذ سنوات قليلة والتقط اسمها من أحد المنادين عليها. . الآنسة آمال. . ولمس احترام زملائها لـها وهى تسير بجواره، وتأملـها جيداً . . كأنه يقرأ قصتها من قسمات وجهها ووقع خطاها. . إنها فتاة فى مقتبل العمر. . مصرية الملامح تختزن فى وجنتيها بقية من أشعة الشمس الغاربة، وفى شفتيها طلعة الورد حينما يتفتح عن أكمامه فيمتزج فيه الأحمر والأبيض ليصنعا معًا لونًا جديداً تعرفه المشاعر والأحاسيس قبل أن تدركه العيون والأبصار. . وتهفهف خصلات من شعرها الفاحم فوق خديها تداعبها فى حب وحنان ثم تتوارى خجلاً من هبات النسيم الجرىء. وأحس جابر كأنه يرى فتاة لأول مرة،

وأن شيئًا ما يقرّب بينهما، بل خيل إليه أنه يعرفها منذ زمن بعيد. . وغابت عنه فترة من الزمن ثم التقى بها فجأة. . شعور غريب يتملك الإنسان أحيانًا حينما يجد مَن يتسلل إلى قلبه . . أليست الأرواح جنودا مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف؟ وعرف جابر مكان عملـها قبل أن تتركه، وذهب لقضاء أموره التى جاء من أجلـها. . وطال به الوقت حتى اقترب موعد خروج الموظفين إلى منازلـهم وتباطأ فى انصرافه. . ووقف غير بعيد من مكتب آمال حتى رآها تتهيأ لمغادرة المكان فاقترب منها مدعيًا أن الصدفة وحدها هيأت لـهما هذا اللقاء ليجدد شكره على ما قدمته من خدمات.

وعرض عليها أن يرافقها فى الطريق فلم تأذن ولم ترفض. . وراح يحدثها عن نفسه وعملـه. . ولأول مرة فى حياته يشعر أنه يريد أن يتكلم ويطيل فى حبل الحديث دون أن ينقطع . . واتخذ من ظروف العمل وسيلة لما يريد. . وكيف أنه ساهم مع غيره فى دحض افتراء الأجانب بعجزنا عن العمل الذى يقومون به حتى تفوقنا عليهم فى كل شيء وشهدوا لنا بذلك. . وأصدق شهادة ما جاءت من فم العدو.

وتركته آمال يسترسل فى الحديث دون أن تقاطعه إلا ببسمة خفيفة شجعته على الاستمرار فى كلامه كأنه يحكى قصة الزمن الذى ظلت حبيسة طى وجدانه حتى وجدت المتنفس الذى تنطلق منه فانسابت بلا قيود . . ولم يشعر جابر أنه يكلم إنسانًا غريبًا عنه. . فصوتها يتردد صداه فى أذنيه، وخطواتها توقع لحنًا رتيبًا جميلاً يشدّه إلى اقتفاء أثره.

والتفتت آمال إليه قائلة: إننى أعرف عنك كل شيء، وما ذكرتَه ليس بجديد علىّ. . فطبيعة عملى فى الـهيئة تحتم علّى ذلك. . وطالما سمعت صوتك فى الميكروفون تطلب شيئًا أو تستفسر عن أمر أو تستجيب لتوجيه من مركز

الإرشاد هنا . . ورصيدك من الثناء والتفوق كثير مما جعلك فى قائمة المعروفين لدينا جميعًا كواحد من أبرع المرشدين فى هيئة القناة الذين نعتز بهم اعتزازًا كبيرًا .

واقتربا فى خطواتهما من حى شعبى فى أطراف الإسماعيلية . . وأشارت إلى مكان منزلـها ، ومن الضرورى أن يذهب كل منهما فى طريقه . وقبل أن يفترقا أخذ منها موعداً باللقاء مرة أخرى . . وعرف أشتاتًا عن حياتها وحياة أسرتها .

كانت تمثل جيلاً عاش فى ظل العدوان وذاق ويلاته . . وابتلى بناره . . وشقتها من الخارج توحى بالبساطة والتواضع كشقق الحى الذى تقع فيه . . مات والدها وهى ما زالت صغيرة ، واستشهد أخوها الأكبر فى نضالـه مع المستعمرين . . وعرف منزلـها الترمل والثكل كمئات المنازل فى مصر التى أصابها المعتدون فى أبنائها وتركوا لـها الحزن والدموع ولوعة الفراق .

وعاشت مع والدتها وأخيها الصغير تشاركهما الآلام والـهموم . . واتخذت من نفسها سنداً للأم ومعينًا للأخ ، وبعد تخرجها عينت فى هيئة قناة السويس تقديراً لدور أخيها البطولى .

وأحست أنها المسئولة عن تلك الأسرة الصغيرة وعليها وحدها يقع العبء الأكبر فى تربية أخيها والوقوف بجوار أمها . . ومن هنا فرضت على نفسها قيوداً التزمت بها ونسيت أنها أنثى جميلة لـها عواطف شأن كل فتاة فابتعدت عن كل ما يوقظ فيها أحاسيس الأنوثة ويجعلـها تفكر فى الزواج رغم كثرة المعجبين . . وصدّت كل من يقترب منها ويحاول أن يخطب ودّها حتى عُرفت بين زملائها بالعزلة والانطواء وما يربطها بهم هو العمل فقط . . ونما هذا الشعور فى أعماقها حتى أحالـها رجلاً فى ثياب امرأة .

وعاد جابر إلى منزلـه وصورة آمال تملأ كل وجدانه وتسيطر على أحاسيسه، وبينه وبين نفسه يلحّ عليه سؤال غريب : ما الذى يشدّه إلى آمال؟ وما السر الـهائل الذى أيقظ فيه قلبًا ظل نائمًا لسنوات طويلة لا ينبض ولا يخفق؟!

obeikandl.com